هرقليطس وهيكل

من الأصل إلى التأويل (دراسة مقاربة)

أ. م. د. حامد حمزة حمد

كلية الآداب – جامعة واسط

مقدمة:

الفكر الإنساني بكل جوانبه، كل واحد لا يتجزأ، ولا يمكن أن تكون حلقاته غير مرتبطة ببعضها عبرة مسيرة التاريخ التي توجب تطوره من الماضي إلى الحاضر،إلى حد لا يمكن الاحتكام فيه إلى أصل المذاهب الحديثة إلا بالعودة إلى الأصول التي سبقتها، وفي هذا فائدتين الأولى: معرفة مراحل تطور العلم والفكر النظري والأسباب الموجبة لهما، والثانية العودة إلى الأصول الأولى لولادة الأفكار ومقاربتها مع حاضرها لمعرفة مدى تطابقها مع بعضها. والفلسفة احد الأركان الأساسية للمعرفة الإنسانية، وتشكل مع العلم والدين موضوعات العقل الإنساني في الماضي والحاضر، ولكن على الرغم من أن الدراسات المعاصرة أثبتت أن الفلسفة سبقت اليونان، ألا أن مفهوم الفلسفة لفظة استحدثت مع اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، ومعهم تطورت بفروعها ومباحثها وبلغت أوجها مع أفلاطون وأرسطو في القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد.

كانت الفلسفة اليونانية موضوع اهتمام الباحثين والدارسين على مر العصور، حتى بعد أن أغلقت المدارس الفلسفية اليونانية في العصر الروماني، بحجة أنها تدرس الأفكار الوثنية كما حدث مع أكاديمية أفلاطون على يد الإمبراطور الروماني (جستنيان)، وكان تأثيرها على الدارسين وفلاسفة العصر الوسيط لما يزل، ولا تكاد فلسفتهم الدينية تخلو من أشارات قوية من الفلسفة اليونانية، سواء كان ذلك في الجانب الأخلاقي أو الفلسفي. وكان هناك رابطا مهما بين الأفلاطونية المحدثة والفكر المسيحي الذي ينتمي إلى فلسفة العصر الوسيط، وهو جزء من اثر الفلسفة اليونانية عليه، كما أطلق على القديس أوغسطين لقب (أفلاطون المسيحي)[١].

وفي العصر الحديث اخذ الاهتمام بالفكر اليوناني حيزا كبيرا من فكر الباحثين والفلاسفة، وترجمة الكثير من كتب الفلاسفة اليونان ومؤرخو الفكر اليوناني حتى أغنت الفكر الحديث وألقت بضلال أفكارها على تصورات فلاسفته وهيمنت على عقولهم.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن التاريخ يتطور عبر مراحل وحلقات يرتبط بعضها ببعض، وهذا القول ينطبق أيضا على تاريخ العلم والفلسفة، بحيث لا نجد فكرة فلسفية حديثة إلا ولها جذورها في الفكر القديم، بعد أن خضعت لسلسة التطور التاريخي .

أن أهم نقطة في تشابهه عصر النهضة والحديث مع العصر اليوناني القديم، هو أن الدافع الأساس في الاهتمام بالفلسفة والعلم، كان اهتزاز الثقة بالدين، فلم تكن للرهبة من الطقوس الدينية والمعابد في أيونيا في القرن السادس قبل الميلاد أدنى تأثير على طبقة المثقفين على اقل تقدير، بعد أن افقدها هوميروس إنسانيتها وقدسيتها حينما وصفها بأوصاف مشينة في أشعاره الملحمية التي حطت من أهميتها في نظر الناس، وهكذا كان حال الديانة في عصر النهضة التي اهتزت الثقة بها بعد أن أفرغتها الكنيسة من محتواها الديني وسيستها، وكان ذلك سببا ملحا في التوجه نحو العلم والفلسفة.

أن نظرة فاحصة لمسار الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر، يمكن الاستنتاج منها، أن معظم الأفكار الفلسفية التي ظهرت في هاتين العصرين لا تخلو من اثر للفكر اليوناني القديم، وان معظم فلاسفة العصر الحديث والمعاصر كانوا قد اطلعوا وتأثروا بالفلسفة اليونانية، واخذوا من أفكارها في بناء مذاهبهم في الفلسفة، مثل فرانسس بيكون وامانوئيل كانت وهيكل ونيتشه وماركس من المحدثين، وكارل يسبر[٢]، وجبرييل مارسيل[٣]، من المعاصرين، فالمنهج الاستقرائي عند بيكون قام على أساس المنهج الأرسطي، فضلا عن أن بيكون احتفظ من أرسطو بمصطلح الصورة التي كانت احد أركان فلسفة الأخير في الوجود[٤]، كما تميزت الفلسفة الانكليزية(متمثلة بجامعتي كمبردج وأكسفورد)، منذ العصر الوسيط، بالنزعة الروحية الأفلاطونية للأولى والأرسطية للثانية، في حين قامت فلسفة هيكل على فكرة الصراع والجدل التي قال بها هرقليطس، في حين يرى بعض مؤرخوا الفلسفة أن جذور الفلسفة الوجودية يعود إلى سقراط والرواقين[٥]، وأن أحاديث يسبرز عن الحقيقية المتعالية قد اصطبغت في بعض الأحيان بصبغة أفلاطونية محدثة[٦]، وكان السبب في ذلك إلمامه بالتراث الفلسفي الهائل الذي خلفه سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقين وغيرهم من فلاسفة العصر اليوناني القديم، أما مارسيل فقد اثر على تسمية فلسفته بالسقراطية الجديدة، وأطلق علية اسم سقراط الجديد، لأنه أراد للفلسفة أن تكون فلسفة واقعية، كما هي عند سقراط، وفضلا عن ذلك فان نظرة مارسيل إلى الوجود تشبه إلى حد كبير رأي بارمنيدس، فقد رأى الأول أن الهدف من الفلسفة هو أدراك الوجود من حيث هو موجود (الوجود العام)[٧]، وهو ما قصده بارمنيدس في قصيدته في الوجود[٨]. وليست النظرية النسبية التي توصل إليها ألبرت اينشتاين(١٨٧٩-١٩٥٥)، بالجديدة على الفكر الإنساني، فالسفسطائيون أقاموا أرائهم في الفلسفة والأخلاق على قاعدة نسبية تعد الإنسان مقياس كل شيء، والشكاك في القرن الرابع قبل الميلاد، شكوا بكل روافد المعرفة

الإنسانية، وتوصلوا إلى عدم قدرة الحواس والعقل على الوصول إلى المعرفة بطبيعة الأشياء، واخذوا بمبدأ التوقف عن الإقرار بأي شيء وتعليق الحكم.

وفي السياق نفسه يرى فردريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠)، الأديب والفيلسوف الألماني، الذي كان يشبهه هرقليطس، فقد كان أبوه قسيسا، وجده هو الأخر كان قسيسا، وفي شبابه أراد أن يكون قسيسا، لكنه خرج عن الدين والأخلاق بمنتهى الشدة، وصار عالما من أعلام الفكر[٩]، يرى أن علينا التميز بين البداية والأصل، لأنه ليس ممكنا الحديث عن الأصل، لان كل أصل عبارة تأويل لنموذج سابق عليه[١٠]، وهكذا كانت معظم فلسفة هيكل تأويل لنموذج سابق عليها، وهي أراء هرقليطس في الفلسفة.

وفي بحثنا المتواضع هذا نود أن نبين اثر فلسفة هرقليطس على فكر هيكل وإنتاجه الفسلفي من خلال مقاربة الأفكار الأساسية عند الاثنين، وبيان اسبقية هرقليطس في ذلك من خلال استخدام المنهج التاريخي المقارن، واعتماد النصوص الأصلية عند الاثنين لتفادي الوقوع في الزلل.

هرقليطس:

يعد هرقليطس (٥٤٠- ٤٧٥ق.م)، احد أشهر الفلاسفة اليونان في المدة التي سبقت سقراط، وينظر إليه دائما بوصفه مدرسة فلسفية مستقلة، وفي اغلب الأحيان يصنف ضمن فلاسفة الطبيعة بسبب إرجاعه مبدأ الوجود إلى عنصر طبيعي مادي هو(النار).

ينحدر أصله من عائلة ارستقراطية اشتهرت بالكهانة، وحينما توفي والده تنازل عن منصب الكاهن لأخيه الأصغر، بسبب نظرته الساخرة للدين ومحاولته التخلص من قيوده وعلائق المجتمع، الذي كان يرى أن جل أهله لا يعرفون كيف يسمعون ولا كيف يتكلمون. لقد كان ذا طبيعة متعالية يحتقر العامة ومعتقداتهم ويباعد بينه وبينهم، يشبهم بالكلاب تارة، وأخرى بالأطفال، وثالثة بالحمير[١١]، ولم يرضى بالسهل من الحياة ولا تقنعه الحلول الوسط في المسائل الفلسفية أو الاجتماعية، لذلك كان يزدري العلم الجزئي والمشتغلين فيه أمثال هوميروس وهزيود وفيثاغورس، ويرى(انه لا يثقف العقل)، بل كان يتجه في تفكيره وفلسفته إلى أصعب الأمور وأكثرها تعقيدا وغموضا، لذلك لقب(بالفيلسوف الغامض). لقد اعتمد في أسلوبه الرمزية والتشبيه واستعمال العبارات المبهمة بطريقة نثرية، ويعد دون أدنى شك مؤسس الجدل في الفلسفة، وقد سبق سقراط في أشارته إلى أن العلم الوحيد الجدير بالاهتمام والدراسة هو العلم الكلي الذي يودي إلى البحث في المعاني الكلية التي أصبحت فيما بعد أساس فلسفة سقراط ونظرية أفلاطون في المثل وفلسفة الأخلاق، وفلسفة أرسطو، وسلسة الصدورات

في الوجود عند أفلوطين، وصراع المتناقضات عنده سر إدامة الكون والحياة ، وسنفصل القول في ذلك لاحقا.

أن البحث في فلسفة هرقليطس ليس بالجديد، فقد تباينت أراء الباحثين في العصر القديم والحديث حول فلسفته عامة وأسلوبه الغامض خاصة، وكان أشهر منتقديه معاصره (بارمنيدس ٥٤٠-؟)، فيلسوف الثبات الدائم، كما أن أفلاطون كان متأثرا بآرائه في التغير الدائم في الوجود، وكان ذلك السبب الأساس الذي دفعه للبحث عن عالم الثبات الدائم خارج الوجود الحسي المتغير، الذي وجده في عالم المثل.

لقد استطاع هرقليطس أن يثري بفكره الأصيل والجريء مسار الفكر الفلسفي، ويوجهه نحو المتغير والمتحرك والمتجدد والمتعدد، الذي هو مبدأ الوجود المادي (النار الأزلية)، والتناقض والصراع الدائم (الذي هو سر إدامة الوجود)، الذي يخضع برمته للمبدأ الميتافيزيقي الذي يمثل الحقيقة الوحيدة الثابتة في الوجود (اللوغوس أو القانون).

أن هذه الأفكار الأصيلة التي تجعل من التناقض(الجدل)، أساس الصراع في الوجود، تشيد بشخصيته الفلسفية الفذة، التي جعلت منه فيلسوفا من الطراز الأول، مما كان مدعاة للإشادة به من قبل الكثير من الفلاسفة والباحثين قديما وحديثا، فقد قال فيه ديوجين اللايرسي قديما: (كان هرقليطس رجلا سامي المشاعر، متكبرا، متعجرفا، أكثر من أي إنسان أخر وكان منذ حداثته موضوعا للإدهاش)[١٢]. أما في العصر الحديث، فقد تأثر به الكثير من الفلاسفة، على رأسهم هيكل، موضوع بحثنا، حيث قال فيه:(انه لأمر عظيم الأهمية أن يكون هرقليطس أدرك أن الوجود واللا وجود هما مجرد تجريدات لا حقيقة لها ،وان الحقيقة الأولى هي الصيرورة فقط)[١٣]. وكان فردريك نيتشه من المعجبين به أيضا، فقد وصفه قائلا: (أن من رأى مذهبه في القانون داخل الصيرورة، وفي اللعب داخل الضرورة، يجب أن يبقى من الآن فصاعدا حاضرا في الذهن إلى الأبد، انه هو الذي رفع الستار عن هذا المشهد المهيب)[١٤]، في حين عده كل من ماركس ولينين، احد المؤسسين لفكرة الجدل، وأب المادية الجدلية[١٥]. أما فردريك انجلز، فقد وصف منهجه بالصحيح في الجوهر، إذ يقول فيه: (أن تلك الطريقة البدائية الساذجة، أنما الصحيحة في الجوهر، في النظر إلى العالم، هي طريقة الفلاسفة اليونان في العصور القديمة، وأول من صاغها صياغة صميمة كان هرقليطس)[١٦].

هيكل:

يعد جورج فلهلم فردريك هيجل(١٧٧٠-١٨٣٠)، احد أعظم الفلاسفة إنتاجا وتأثيرا على مسار الفكر الفلسفي من بعده، وتشكل فلسفته المثالية ونقدها، جزاء مهما من تاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة إلى يومنا هذا.

لقد بلغت مؤلفاته حوالي ثلاثون مجلدا، أربعة منها تم نشرها في حياته، وهي: (علم ظواهر الروح، المنطق، موسوعة العلوم الفلسفية، وفلسفة القانون)، أما المؤلفات الأخرى فقد نشرت بعد وفاته وترجمت إلى اللغة الانكليزية وهي: (محاضرات في فلسفة التاريخ، وفلسفة الدين، وفلسفة الفن، وتاريخ الفلسفة)[١٧].

تميز هيكل بأسلوب لامعا، بليغا، زاخرا بالصور، ونقده للكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء، بل وحتى السيد المسيح، نقدا لاذعا في اغلب الأحيان، فقد كان يعارض كل عقيدة متحجرة أو نزعة إلى السلطة، لقد كان يعتقد أن المسيحية كدين تتنافى مع العقل والكرامة الإنسانية، وكان يبحث عن أمكان قيام دين معقول تمام المعقولية، من شانه أن يساعدنا على الوصول إلى شخصية منسجمة، ومستوى عال من الأخلاق[١٨]. وعلى الرغم من الإنتاج الغزير له،والمكانة العظيمة التي بلغتها فلسفته، إلا أن هذا لا يعني انه لم يستفد من المذاهب السابقة عليه، خاصة الفلسفة اليونانية القديمة.

مثل هيكل الاتجاه المثالي في الفلسفة الحديثة، وكان أفلاطون مؤسس هذا الاتجاه قد جمع في شخصه كل مزايا العقل اليوناني، فأوصلها إلى أقوى وأبهى مظاهرها، وتميز بالجراءة والاستدلال والحدس والملاحظة، فضلا عن العاطفة والفن والرياضة، واستوعب جميع النزعات الروحية التي استخلاصها من الاورفية والفيثاغورية، ووضحها وأحالها إلى مفاهيم عقلية، ونقل الدين إلى الفلسفة، كما هو حال هيكل الذي لم يبدأ الكتابة والنشر إلا بعد أن فرغ من تكوين مذهبه بجميع تفاصيله، مستخدما في ذلك ثقافة واسعة ودقيقة في الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات، والفلسفة اليونانية، واللاتينية، والتاريخ، والفنون والاجتماع، فجاءت مؤلفاته عرضا منظما وواضحا نهائيا لفلسفته.

وفق أفلاطون ونسق بين المذاهب المختلفة، وعد كل واحدة منها حقيقة جزئية، وان الحقيقة الكاملة تكمن في الجمع بين تلك المذاهب المختلفة والمتناقضة في كل مؤئلف، واخضع المحسوس للمعقول والحادث للضروري، وكان اثر فلسفة هرقليطس في صراع الأضداد الذي يولد الحياة،احد العوامل الرئيسة المؤثرة فيه،وهكذا فعل هيكل في العصر الحديث،متأثرا بآراء

هرقليطس في الوجود، ومنهج أفلاطون في التوفيق بين المذاهب،وفلسفته المثالية، وطريقة أرسطو في كتابة ونقد الدساتير.

ومن الجدير بالملاحظة أن فلسفة هيكل لم تسلم من النقد حتى في حياته، فقد تعرضت للنقد الشديد من قبل أصدقاءه وتلامذته، وهو مازال على قيد الحياة، واستمرت مدة طويلة بعد وفاته، وكان أول منتقديه زميله (هولزمان)، فقد كان كتابه الذي عنوانه حول النظرية الهيغلية أو المعرفة المطلقة ووحدة الوجود الحديثة، نقد موجها ضد فلسفة هيكل، ثم كتاب (شوبارت)، حول الفلسفة بصورة عامة وفلسفة هيكل بوجه خاص، ثم كتاب (كاليش)، رسائل موجهة ضد موسوعة هيكل للعلوم الفلسفية، ولكن اخطر الهجمات على فلسفة هيكل كانت من قبل (كريستيان هرمان فايسي)، في كتابه الموقف الحالي للعلوم الفلسفية، فقد وجه نقده ضد منطق هيكل، وكانت حجته أن هيكل لم يدخل الزمان والمكان ضمن مقولات المنطق، وان مزاعم منطق هيكل مبالغ بها، وفي كتابه(مذهب في علم الجمال)، رأى هايسي أن هيكل انتهى إلى الوقوع في الشمولية المنطقية، في نظريته عن الروح المطلق، حيث يضع العلم، أي الفلسفة فوق الفن والدين، بدلا من أن ينتهي مذهبه بالدين، كما انه احل الفكرة المطلقة محل الله، وبذلك وقع في وحدة وجود منطقية شاملة، حيث يرى هايسي أن على هيكل أن يعترف بالحرية التي تتجاوز ما هو منطقي، لان معنى الحرية يعارض مذهب الضرورة عنده، كما أن فلسفة الطبيعة يجب أن لا تكون بناء منطقيا، بل أن تتحول إلى تجربة فلسفية. لقد عد هايسي فلسفة هيكل مجموعة متسقة من الأخطاء، وان مذهبه، هو مذهب في وحدة الوجود أو الإلوهية الشاملة، على الرغم من أن المذهب لم يوحد بين الله وجميع الأشياء، ولكنه وحدة بينه وبين جميع الأرواح[١٩].

مقاربات:

الوجود:

يرى هيكل أن المطلق هو الوجود الواقعي بما فيه من روح لأمتناه، وعقل كلي، أو مبدأ خالق منظم، وان الطبيعة والفكر مظهران من مظاهره، يظهر الفكر في وقت ما من تطور الطبيعة، لأنهما وجهان له متوازيان، ولأجل فهم الوجود في مبدأه وتسلسل مظاهره يجب أتباع منهج منطقي يبين هذا التسلسل، ابتدأ من أصل واحد(هو القضية)، ينقلب إلى نقيضه ثم يأتلف مع هذا النقيض[٢٠]. أما الموجود حقا عند هيكل فهو المركب من نقيضين، الوجود واللا وجود(الموجود الذي لا يوجد على التمام)، وهذه هي الصيرورة، فهي عنده صميم الوجود وسر التطور، والصيرورة هي وجود لا وجود (ما سيصار أليه)، وهي ليست اجتماع الأضداد أو التناقض، بل الانتقال من ضد إلى ضد، بحيث لا يجتمع ضدان، وهذا ما لم يصرح به هيكل[٢١]،

وهو أصل قول هرقليطس بالوجود المتحرك المتبدل على الدوام، وبناء على ذالك يعد الموجود صائرا ونواميا، والتناقض ماهية تتجلى في متناقضات العقل، لان التناقض عند هيكل مبدأ أول في العقل والوجود، وما ذاك إلا لأنه ظن أن الوجود أطلاقا، هو الوجود المحسوس الصائر المتحرك، تماما كما هو رأي هرقليطس في الوجود، المبين في النصوص الآتية، فأولا: يرى هرقليطس أن الوجود مركب من نقيضين:(الزوجان كل ولا كل، يرسمان معا وإحداهما تحت الأخر، مؤتلفان ومتنافران، الواحد يتألف من جميع الأشياء، وتخرج جميع الأشياء من الواحد)[٢٢]، وهذا يعني أن كل كائن وليد الصراع بين قوتين متناقضتين، مؤتلفتين (الوجود واللا وجود)، لا تهدآن برهة حتى تعودان إلى التنافر والتنازع، وتتنازعان حتى تعودان إلى الائتلاف والانسجام، هذا الصراع يحوي جميع الأشياء،وجميعها تخرج منه، فالوجود أذن تنازع وصراع بين الأضداد، والصراع قاعدة في الوجود تخضع لها جميع الموجودات، وحتمية الصراع لا مفر منها في الوجود الصائر المتبدل على الدوام(كما عند هيكل)، أن مبدءا هرقليطس قائم في الصيرورة والتغير(الموجود وحده)، وما الوجود الثابت إلا وهم،فكل ما يوجد في عالمنا هو في حالة تغير دائم ويتحول إلى أشكال جديدة من الوجود،فلاشيء يبقى ويثبت ويظل كما هو، يقول هرقليطس: (يجب على الإنسان أن يعرف أن الحرب عامة والشريعة هي النزاع وكل شيء يبرز إلى حيز الوجود عن طريق النزاع والضرورة)[٢٣]. وثانيا: الوجود في حركة دائمة: (لا يمكنك أن تنزل مرتين إلى النهر نفسه، لان مياه جديدة تغمرك باستمرار، وهي تتجمع وتتفرق،وتقترب وتنفصل)[٢٤]. أن مبدأ هرقليطس قائم على التغير والصيرورة، والتغير هو الموجود وحده، وما الوجود الثابت إلا وهم، فكل ما يوجد في عالمنا هو في حالت تغير دائم ويتحول إلى أشكال جديدة من الوجود، فلاشيء يبقى ويثبت ويظل على حاله ولو للحظة واحدة، فما من إنسان ينزل إلى النهر الواحد مرتين، لأنه دائم التدفق والجريان[٢٥]، كذلك (ما يوجد فينا شيء واحد: حياة وموت، يقظة ونوم، صغر وكبر، فالأولى من الأضداد تتحول وتصبح الأخيرة، وتصبح الأخيرة الأولى)[٢٦]، و(النار تحيا بموت الأرض،والهواء يحيا بموت النار،والماء يحيا بموت الهواء،والأرض تحيا بموت الماء)[٢٧]، (وتصبح الأرض بحرا طبقا لنفس القانون الذي تحولت إليه الأرض من قبل)[٢٨]، (تتجدد الشمس كل يوم،وهي علة تغير الفصول التي تنتج كل شيء)[٢٩]، (الله هو النهار والليل، الشتاء والصيف،الحرب والسلم،الشبع والجوع، ولكنه يتخذ إشكالا مختلفة)[٣٠]، (أنها تفرق وتجمع، وتزيد وتنقص)[٣١]. وهكذا هي فكرة الجدل والتناقض والصيرورة، وهي سر إدامة الحياة عند الاثنين.

أما من ناحية علاقة الفكر بالوجود عند هيكل واثر هرقليطس عليه فيرى الأول، أن الفكر والوجود واحد، وهما مظهران من مظاهر الروح الكلي أو المطلق، تماما كما عند هرقليطس في رأيه حول علاقة الحكمة بالأشياء، بوصفها تمثل الوجود،كما في قوله (لم أجد أحدا ممن سمعت

مقالاتهم يذهب إلى أن الحكمة منفصلة عن جميع الأشياء)[٣١]، وهو يقصد بالحكمة، المعرفة، وجميع الأشياء، الوجود،في حين أن الحكمة عنده شيء واحد هي معرفة ما به تتحرك جميع الأشياء في جميع الأشياء، وهي ما يقابل قول هيكل في علاقة الفكر والوجود والصلة بينهما .

القانون والمجتمع:

أن العصر الذي عاش فيه هرقليطس وما ساده من حروب بين دويلات المدن اليونانية وجيرنها، فضلا عن أن النهضة الدينية التي رافقت ذلك العصر،يشبه إلى كبير العصر الذي عاش فيه هيكل، فألمانيا في عصر النهضة كانت عبارة عن حشد من الدويلات الصغيرة، وكان الموقف السياسي فيها عبارة عن فوضى سياسية وقانونية. وهكذا ظروف تمتاز بظهور الشخصيات الفردية البارزة، ومن شان الفردية العزلة، وهكذا كانت الحال مع هرقليطس وهيكل، فالاثنان تميزا بالعزلة، ومحاولة الترفع على العامة، بل أن هرقليطس كان يزدريهم،لا اعتقاده في بلادتهم وغبائهم، أما هيكل فقد أكد أن الفيلسوف لا يبدأ بالتفكير السليم إلا بمعزل عن العامة، وقد جسد ذلك في قوله الشهير (أن بومة منيرفا لا تبدأ الطيران إلا بعد أن يرخي الليل سدوله)[٣٢]، وقد كانت منيرفا (آلهة الحكمة عند اليونان والرومان)، أما هرقليطس فقد كان في معظم أقواله يحاول إيقاظ أذهان العامة للبحث عن الحقائق التي تحب أن تختفي، وان لا يتركوا ذلك لأنهم سوف يقنعون بالمظاهر الكاذبة،لان (الطبيعة تحب أن تختفي)[٣٣]، كما يذكر أن (الناس يعجزون عن فهم الكلمة لوغوس (القانون)،الأزلية عند سماعها وكأنهم يسمعونها لأول مرة، وان الأشياء تسير مطابقة لهذه الكلمة، إلا أن الناس يبدون كأنهم لا تجربة لهم بالأشياء عندما يصنفون والأسماء الأفعال، وهناك من الناس لا يشعرون مايفعلون وهم إيقاظ، كما لا يشعرون ما يفعلون وهم نيام)[٣٤]. كما أن قصور فهم الناس لمظاهر الحياة جعلهم حسب رأيه، لا يفهمون الأمور التي تقع عيونهم عليها، إذ يقول (لا يفهم كثير من الناس هذه الأمور التي تقع عيونهم عليها، ولا يلحظونها حين يعلمونها، ولو أنهم يظنون غير ذلك)[٣٥].

لقد عد هيكل الفلسفة فكر ثاني، أو فكر لاحق، وهناك فكر أول ينشا في حياة الناس اليومية في شتى المجالات، ثم تأتي الفلسفة لتجعل من هذا الفكر موضوعا للدراسة، ودور الفلسفة هنا توجيه نظم الفكر الأول (الحياة اليومية للناس)، وترتيبها بالشكل الذي يجعلها تتطابق مع الكلي أو القانون العام الذي تمثله التصورات الكلية التي هي موضوعات الفلسفة الرئيسية النابعة من العقل الذي يمثل الكلي، ولان الناس عاجزين عن ذلك، فان تلك المهمة تقع على عاتق الفلسفة. وهذا ما يطابق أفكار هرقليطس في القانون العام أو اللوغوس.

ومن الجدير بالملاحظة ان الاثنين لم يبتعدا عن الواقع في معالجتهما للفلسفة والقانون، بل أن الواقع هو مجال البحث الفلسفي والأخلاقي والسياسي في محاولتهما وضع نسق من النظم الكلية في تنظيم الحياة الاجتماعية، وما فيها من تنظيمات سياسية وقوانين.

لقد انتقد هيكل المجتمع المدني الذي عاش فيه،وكان في رأيه مجتمعا مفككا،والسبب في ذلك لأنه خرج (أي المجتمع)، من أسرة مفككة يكون الفرد فيها عبارة عن جزئية في خلية اجتماعية صغيرة تكون هي غايته وهدفه، وهي غاية كلية،ولكن تفكك الأسرة جعل كل واحد من أعضائها عبارة عن غاية في ذاته، لطالما يحول أن يتعامل مع الآخرين على أنهم وسائل لتحقيق غاياته الجزئية الخاصة[٣٦].

الجدل والصراع :

أن مبدأ هرقليطس في الوجود قائم على الصراع والجدل، وان كل شيء هو وليد الصراع بين قوتين متناقضتين، لا تهدأن ولو للحظة واحدة، ثم تعودان إلى التنافر والصراع، ولا تتنازعان حتى تعودان إلى الانسجام والائتلاف، فالوجود عنده تنازع وصراع بين الأضداد، والسبب الذي قاد هرقليطس إلى افتراض الصراع هو ما رآه في المبدأ الأول الذي افترضه كأصل للوجود وهي(النار)، فان من صفاتها سرعة الحركة والتحول وعدم الثبات على حالة واحدة في اللحظة الواحدة، بل هي في تبدل باستمرار، وهكذا حالة الوجود، فهو قائم على التغير والصيرورة، وما حالة الثبات الذي نراها إلا وهم، فكل شيء يتبدل ويتغير باستمرار، ويقول في ذلك، (أننا ننزل ولا ننزل إلى النهر الواحد، أننا نكون ولا نكون)[٣٧]، (الطريق إلى فوق والى أسفل واحد ونفس الطريق)[٣٨]، (البدء والنهاية في محيط الدائرة واحد)[٣٩]، (السكون من التغير)[٤٠].

أن حقيقة المذهب الهرقليطي التي تقر بالتغير المستمر في الوجود، تعد مبدأ أساسيا من المبادئ التي قامت عليها المذاهب الفلسفية الحديثة منها والمعاصرة، وأهمها مذهب هيكل الذي يعد الجدل والصراع من دعائم الوجود الأساسية، وان كل مقوله من مقولات الوجود تحتوي على ضدها، من خلال المبدأ العام لمنهجه المتمثل بالمثلث الهيكلي (الوجود، العدم، الصيرورة)، فالوجود هو الجنس، والصيرورة هي لون خاص من ألوان الوجود وهي وجود يتضمن في داخله سلبه أو ما يسمى باللا وجود، ومن جمع فكرة الوجود واللا وجود تظهر لنا فكرة الصيرورة، أما العدم فهي حالة الفصل بين الوجود واللا وجود[٤١].

وهكذا فان كل مقولة من تلك المقولات الثلاثة يعد طرف أساسيا من أطراف الصراع في فلسفة هيكل بشكل عام، ونظرته إلى الوجود بشكل خاص، حيث أن المقولة الأولى تمثل الإيجاب

أو الإثبات، وتضع نفسها كفرض ايجابي مثل الوجود موجود، في حين تكون المقولة الثانية دائما مقولة النفي أو السلب(ضد المقولة الأولى)، فهي تنكر ما تثبته الأولى، وهي مستنبطة من المقولة الأولى، وهذا يعني عنده أن المقولة الأولى تتضمن الثانية، وان الأخيرة خرجت منها، بمعنى أن كل مقولة من مقولات الوجود تحوي ضدها، وهذا ما عناه هرقليطس في قوله ،أننا ننزل ولا ننزل إلى النهر الواحد، أو نكون ولا نكون، والطريق واحدة إلى أعلى وأسفل... الخ.

اللوغوس (الروح المطلق):

يقول هرقليطس في بداية كتابه (في الكل)، من الحكمة أن لا تصغوا أليَّ، وان تقولوا أن جميع الأشياء واحدة[٤٢]. ومع أن هذه الكلمة(لوغوس)، أزلية ألا أن الناس يعجزون عن فهمها عند سماعها ،على الرغم من الأشياء تجري مطابقة لها[٤٣]. كما يرى أن الحكمة تدل على أن جميع الأشياء واحدة، وان هذه الكلمة ليست كلمته، أنما هي كلمة أزلية، صادقة على الدوام، وهي الحق، وهي مطلب جميع الحكماء في جميع الأزمان، وهي التي أشار أليها هيكل في العصر الحديث تحت عنوان (فلسفة الحق)، كما تدل الكلمة على معنى سياسيا إلى جانب معناه الديني والاجتماعي والأخلاقي، ويتضح ذلك من عبارات هرقليطس المختلفة التي يؤكد فيها اشتراك الكلمة بين جميع الناس، كما أن الفكر ليس عاما بل مشترك، وهي أشارة من هرقليطس إلى الوظيفة الاجتماعية والسياسية للكلمة، وهو ما تأثر به هيكل وتجسد في إصراره على قيام المؤسسات المدنية في المجتمع. ومن هذه الوجه تصبح الكلمة الصادرة عن العقل، هي القانون، وتشمل القانون السياسي والقانون الإلهي، وبسبب ذلك يكون العقل الإنساني جزء من العقل الكلي، ويستطيع أن يدرك القانون الذي يحكم العالم والأشياء، الذي هو عند هيكل ما يسمى بالعقل الكلي أو الروح المطلق. ولا يمكن أدراك ذلك إلا من قبل الحكماء، فالحكيم هو الذي يدرك القانون الذي يحكم جميع الأشياء، وقد حدد هرقليطس عمل القانون في كل ناحية من نواحي العالم، لان القوانين الطبيعية والإنسانية مستمدة من القانون الإلهي، وهذا القانون مركب من الأضداد ومن الائتلاف بينها، وهو ما أشار إليه هيكل من أن حركة الأشياء وصراعها في الوجود تبعا للجدلية المؤلفة من القضية ونقيضها، وكل ما يحدث يقع ضمن سيطرة الروح الكلية وبداخلها،لان الأخيرة هي القانون العام، الذي تقع فيه كل التغيرات وهو لا يتغير، كما هو اللوغوس عند هرقليطس، الذي يسيطر على كل شيء في الوجود وهو ثابت لا يتغير، وهو القانون العام الذي يسير عليه الوجود في تغيره من ضد إلى ضد، وهو الشيء الوحيد الثابت في هذا الوجود الدائم السيلان[٤٤].

أما هيكل فينظر إلى الوجود على انه الفكرة الأكثر تجريدا والأكبر كلية، ولذلك فهي الأكثر فراغا من المحتوى، فهي واللا وجود شيء واحد، وهذا هو التناقض بين الوجود واللا وجود

والصيرورة أو التغير الذي أخذه هيكل عن هرقليطس، وهو يعني أن كل شيء في تغير ولا شيء في ثبات، وليس المطلق إلا هذه العملية المستمرة للتغير، فالصيرورة والتغير هي وضع الوجود الحق، والتغير هو حال الوجود على وجه الصواب[٤٥]. وهكذا تناظر فلسفة هيكل أفكار هرقليطس في هذه الدرجة من الفكرة المنطقية، لان هرقليطس جعل من التغير أساسا لكل ما هو موجود، وهذا هو حال تطور الفكر الفلسفي وانتقاله من جيل إلى جيل.

يقول هيكل في هذا الصدد أن الماهية المشتركة، أي القانون العلوي الظاهر تتوفر لها أسباب الحياة الحقة في الدولة أو المجتمع، كالذي تكون في شخص واحد، والدولة أو الحكومة أنما هي الروح الحق المتفكرة في ذاتها، وهذه الروح تسمح للماهية أن تهب كل جزء(فرد)، قيمته وكونه (كيانه الخاص). وعلى الرغم من أن الأسرة هي عنصر الواقع في المجتمع لكن الروح في الوقت ذاته هي قوة الكل التي تجمع الأجزاء(الأفراد)، في الواحد، وتعطيها قيمتها بان لا حياة لها ألا في الكل (الروح المطلق)، وبوسع الماهية أن تنتظم في انساق للاستقلال الفردي أو الملكية للأفراد والأشياء[٤٦].

الخلاصة:

يكاد يجمع معظم الباحثين والمفكرين في حقل الفلسفة أن للفكر اليوناني القديم، اثر واضح في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر لا يمكن تجاهله، فبعد أفول نجم الفلسفة اليونانية في بلاد اليونان خاصة في أثينا، انتشرت في البلدان المجاورة، وامتزجت بالفكر الشرقي القديم(الديني بشكل خاص)، مما ساعد في مساهمة الشرقيين بالفكر الفلسفي، وازدهار مدن الشرق بالفلسفة، وقيام المدارس الفلسفية فيها، كالإسكندرية، ورودس، وميغارا، وقورينا، وسعى الكثير من الفلاسفة إلى تجديد المذاهب الفلسفية القديمة، مع عناية خاصة بالأخلاق، فسعت الابيقورية إلى تجديد مذهب ديمقريطس في الذرات، وتبنت الرواقية فكرة اللوغوس عند هرقليطس، وطور الشكاك القاعدة السفسطائية التي تعد الإنسان مقياس الأشياء جميعا، ثم حاولت الأفلاطونية الجديدة، وضع فلسفة دينية جديدة هي مزيج من الدين الفلسفة، قامت على أصول فلسفة أفلاطون وعناصر من الديانات الشرقية، حاولت الاحتفاظ بالروح اليونانية المتمثلة بالعقلية العلمية في تفسير الأشياء. ثم شرح مجموعة من الفلاسفة الفكر الأرسطي، سموا بشراح أرسطو، عرفهم الفلاسفة المسلمين، وتأثروا بهم، ثم انتقل هذا التأثير إلى الفلسفة الغربية بعد أن ترجمت كتب الفلاسفة المسلمين إلى اللغات الأوربية.

وفي العصر الوسيط (الفكر المسيحي والإسلامي)، بدأت الفلسفة اليونانية تنبعث من جديد، فقد تبنى الفلاسفة في هذا العصر شرح الفلسفة اليونانية برؤية جديدة اقرب إلى الدين

منها إلى الفلسفة، ووظفوها لخدمة الدين، وسعوا إلى استنطاقها بأحكام دينية في مشكلات الفلسفة الرئيسية كالمشكلة الخلق، وقدم العالم وحدوثه والزمان والمكان، وصفات الله وفعله، وتناهي جرم العالم، ومشكلات الميتافيزيقا بشكل عام.

وفي العصر الحديث حاول معظم الفلاسفة أحياء الفكر اليوناني، وعده الكثير من المفكرين المنطلق الأول للفعل الإنساني في كشف حقائق الوجود العلمية، وبناء المذاهب الفلسفية، واخذ الاهتمام بالفكر اليوناني حيزا كبيرا من فكر الباحثين والفلاسفة، وترجمة الكثير من كتب الفلاسفة اليونان ومؤرخو الفكر اليوناني حتى أغنت الفكر الحديث وألقت بضلال أفكارها على تصورات فلاسفته وهيمنت على عقولهم.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن التاريخ يتطور عبر مراحل وحلقات يرتبط بعضها ببعض، وهذا القول ينطبق أيضا على تاريخ العلم والفلسفة، بحيث لا نجد فكرة فلسفية حديثة إلا ولها جذورها في الفكر القديم، بعد أن خضعت لسلسة التطور التاريخي .

أن نظرة فاحصة لمسار الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر، يمكن الاستنتاج منها، أن معظم الأفكار الفلسفية التي ظهرت في هاتين العصرين لا تخلو من اثر من الفكر اليوناني القديم، وان معظم فلاسفة العصر الحديث والمعاصر كانوا قد اطلعوا وتأثروا بالفلسفة اليونانية، واخذوا من أفكارها في بناء مذاهبهم في الفلسفة، لقد قامت فلسفة هيكل، موضوع بحثنا على فكرة الصراع والجدل التي قال بها هرقليطس، فضلا عن فكرة القانون العام (اللوغوس)، الذي يخضع له كل صراع في الوجود، فهو ثابت، لا يخضع للتغير الذي يحصل على بقية الأشياء في الوجود، وهو ما يقابل مفهوم العدالة الكونية عند هيكل الذي تتمثل بالروح الكلية أو العقل المطلق الذي يخضع له كل شيء، ويتحكم في كل تغير في الوجود.

يرى فردريك نيتشه، أن علينا التميز بين البداية والأصل، لأنه ليس ممكن الحديث عن الأصل، لان كل أصل عبارة تأويل لنموذج سابق عليه، وهكذا كانت معظم فلسفة هيكل تأويل لنموذج سابق عليها، وهي أراء هرقليطس في الفلسفة.

الهوامش

١. ا . هـ. ارمسترونغ، مدخل إلى الفلسفة القديمة، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، (أبو ظبي ٢٠٠٩)، ص٢٦٦.

٢. فيلسوف ألماني، ولد عام ١٨٨٣بمدينة اولدنبورج، اهتم بدراسة القانون وعلم النفس وأبدع في الفلسفة وكان أكثر الفلاسفة الألمان المعاصرين أنتاجا، انظر: زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة والنشر، ص٤٢٦.

٣. فيلسوف فرنسي يعد من أعلام الفلسفة الوجودية الفرنسية المسيحية، ولد في باريس عام ١٨٨٩، اهتم بالفلسفة منذ صباه. المصدر نفسه، ص٤٥٤

٤. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦، ص٤٨.

٥. الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء القومي، المجلد الثاني، القسم الثاني، تحرير معن زيادة، ص١٥٠٥.

٦. المصدر نفسه، ص٤٥٢.

٧. المصدر نفسه، ص٤٥٩.

٨. محمد جديدي، الفلسفة الإغريقية، الدار العربية للعلوم والنشر، بيروت ٢٠٠٩، ص١٨٨.

٩. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٤٠٦.

١٠. الموسوعة الفلسفية العربية، ص١٣٢٥.

١١. يوسف كرم ،تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ص١٧.

١٢. محمد جديدي، المصدر السابق، ص١٧٠.

١٣. المصدر نفسه، ص١٧٠. وقارن: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧، ص٦٤٣.

١٤. فردريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تعريب سهيل القش، الطبعة الثانية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣، ص٥٤.

١٥. محمد جديدي، المصدر السابق، ص١٧٠.

١٦. المصدر نفسه، ص١٧٠. وقارن: جورج طرابيشي، المصدر السابق، ص٦٤٣.

١٧. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة، فؤاد كامل وآخرون، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٣، ص٥١٢.

١٨. المصدر نفسه، ص٥١٥.

١٩. الموسوعة الفلسفية العربية، ص١٤٣٢.

٢٠. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٢٧٥.

٢١. المصدر نفسه، ص٢٧٦.

٢٢. احمد فواد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩، الشذرة (٥٩)، ص١٠٨.

٢٣. المصدر نفسه، الشذرات (٤٤-٥٧)، ص١٠٦، وقارن: هرقليطس، جدل الحب والحرب، ترجمة وتقديم وتعليق: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠، ص٨٧. كذلك انظر: محمد جديدي، المصدر السابق، الشذرة (٥٣)، ص١٧٣.

٢٤. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٤١-٤٢-٩١)، ص١٠٦. وقارن محمد جديدي، المصدر السابق، الشذرة (٩١)، ص١٧٣.

٢٥. وولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤، ص٧٠.

٢٦. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٧٨-٨٨)، ص١٠٩. وقارن محمد جديدي، المصدر السابق، الشذرة (٧٦)، ص١٧٣.

٢٧. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٢٥-٧٦)، ص١٠٥. وقارن محمد جديدي، المصدر السابق، الشذرة (٦١)، ص١٧٣.

٢٨.الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٢٣-٣١)، ص١٠٥ .

٢٩. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٣٤-١٠٠)، ص١٠٦.

٣٠. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٣٦-٦٧)، ص١٠٦

٣١. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٤٠-٩١)، ص١٠٦.

٣١أ. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة(١٨-١٠٨)، ص١٠٥

٣٢. إمام عبد الفتاح إمام، دراسات في الفلسفة السياسية عند هيكل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٩٣، ص٦٥.

٣٣. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة(١٠-١٢٣)، ص١٠٤.

٣٤. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة(٢- ١)، ص١٠٣.

٣٥. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة(٥- ١٧)، ص١٠٣.

٣٦.إمام عبد الفتاح امام، المصدر السابق ،ص١٢٨.

٣٧. الاهواني، المصدر السابق، الشذرة(٨١- ١٤٩)، ص١٠٩.

٣٨. الاهواني، المصدر السابق، الشذرة(٦٩- ٦٠)، ص١٠٨

٣٩. الاهواني، المصدر السابق، الشذرة(٧٠- ١٠٣)، ص١٠٨

٤٠. الاهواني، المصدر السابق، الشذرة(٨٣- ١٨٤)، ص١٠٩.

٤١. ولتر ستيس، هيكل(المنطق وفلسفة الطبيعة)، المكتبة الهيكلية، ترجمة امام عبد الفتاح إمام، الطبعة الثالثة ، بيروت ٢٠٠٧، ص١٠١.

٤٢. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (١- ٥٠)، ص١٠٣.

٤٣. الأهواني، المصدر السابق، الشذرة (٢- ١)، ص١٠٣.

٤٤. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، ص٥٣٦.

٤٥. المصدر نفسه، ص٥٨٢.

٤٦. هيكل، فنومينولوجيا الروح، ترجمة ناجي العونلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص٤٨٦.